(الفصل الثالث فيما يتعلق بالقوى الشهوية)

(الباب الاول الحياء)

الحياء انقباض النفس عن القبايح وهو من خصائص الانسان وأول ما يظهر من قوة الفهم في الصبيان وجعله الله سبحانه في الانسان ليرتدع به عما تنزع اليه الشهوة من القبايح فلا يكون كالبهيمة وهو مركب من جبن وعفة ولذلك لا يكون المستحي فاسقا ولا الفاسق مستحييا لتنافي اجتماع العفة والفسق وقل ما يكون الشجاع مستحييا والمستحي شجاعا لتنافي اجتماع الجبن والشجاعة ولقلة وجود ذلك تجمع الشعراء بين المدح بالشجاعة وبين المدح بالحياء نحو قول الشاعر

يجري الحياء الغض من قسماتهم * في حين يجري من أكفهم الدم

وقال

كريم يغض الطرف فضل حيائه * ويدنو وأطراف الرماح دوانى

ومتى مدح بالانقباض فدح للصبيان دون المشايخ ومتى قصد به ترك القبيح فدح لكل أحد وبالاعتبار الاول قيل الحياء للأفاضل قبيح ومن هذا الوجه نزى نزيا في الهوان ونزى نزاية في الاستحياء فيسلم من متبع واحد وبالاعتبار الثاني قيل ان الله يستحي من ذي الشيبة في الاسلام ان يعذبه أي يترك عذابه وأما الخجل فحيرة النفس لفرط الحياء ويحمد في النساء والصبيان ويذم باتفاق من الرجال والوقاحة مذمومة بكل انسان اذهي انسلاخ من الانسانية وحقيقتها انجاح النفس في تعاطي القبيح واشتقاقه من حافر وقاح أي صلب وبهذه المناسبة قال الشاعر

ياليت لي من جلد وجهك رقعة * فأقد منها حافرا للاشهب

وما أصدق قول الشاعر

صلابة الوجه لم تغلب على احد * الا تكامل فيه الشر واجتمعا

فأما مداواة اكتساب الحياء اذا هم بقبيح فبأن يتصور اعظم ما في نفسه ولذلك لا يستحي من الحيوان ولا من الاطفال الذين لا يميزون ويستحي من العالم اكثر مما يستحي من الجاهل ومن الجماعة أكثر من الواحد والذي يستحي منهم الانسان

الانسان ثلاثة البشر وهو أكثر ما يستحي منه ثم نفسه ثم الله عز وجل ومن استحى من الناس ولم يستح من نفسه فنفسه أخس عنده من غيره ومن استحى منهما ولم يستح من الله عز وجل فلعدم معرفته به فان الانسان يستحي ممن يعظمه ويعلم انه يراه ويسمع نجواه ومن لا يعرف الله فكيف يستعظمه وكيف يعلم انه مطلع عليه وقوله صلى الله عليه وسلم استحيوا من الله حق الحياء في ضمنه حث على معرفته وقال الله عز وجل ألم تعلم بأن الله يرى تنبيها على ان العبد اذا علم أن ربه يراه استحي من ارتكاب الذنب وسئل الجنيد عما يولد الحياء من الله تعالى فقال رؤية العبد آلاء الله عليه ورؤية تقصيره عن شكره ان قيل كيف قال عليه الصلاة والسلام من لا حياء له لا ايمان له قيل الحياء أول ما يظهر في الانسان من أمارة العقل والايمان آخر مرتبة العقل ومحال حصول المرتبة الاخيرة لمن لم تحصل له الاولى فبالواجب اذا كان من لا حياء له لا ايمان له وقال صلى الله عليه وسلم الحياء شعبة من الايمان وقال الايمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء

(الباب الثاني كبر الهمة)

وأما كبر الهمة فخاص بالانسان وأما سائر الحيوان فكل جنس يتحرى العقل بقدر ما في طبعه وهو حال بين التفخ وصغر الهمة فالتفخ تأهل الانسان لما لا يستحقه وهو البذخ وصغر الهمة ترك لما لا يستحقه وهو الدناءة وكلاهما مذموم لكن المتفخ جاهل أحمق وصغير الهمة جاهل غير أحمق وليس لكبر الهمة افراط مذموم في الحقيقة وانما الافراط يدخل في كل فعل يتصوره بعض الناس تصور عدم الهمة وليس كذلك واعلم انه يقال فلان كبير الهمة وفلان صغير الهمة اذا كان أحدهما يطلب مقتنى أكثر أو أشرف مما يطلبه الآخر والكبير الهمة على الاطلاق هو من لا يرضى بالهمم الحيوانية قدر وسعه فلا يصير عبد عارية ببطنه وفرجه بل يجتهد ان يتخصص بمكارم الشريعة فيصير من أولياء الله وخلفائه في الدنيا ومن مجاوريه في الآخرة والصغير الهمة من كان على الضد من ذلك وقال اعرابي فلان عظيم صغر الدنيا في عينه فكان خارجا من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر

اذا وجد وخارجا من سلطان فرجه فلا يستحق له رأيا ولا بدنا وحق الانسان ان يتطلف من ذلك فانه وان كان بعنصره حيوانا فبعقله وفكره ملك اذا ضيع نفسه صار شرا من البهيمة وذلك هو الخسران المبين وقيل من عظمت همته لم يرض بقنية مستردة وحياة مستعارة فان أمكنك ان تقتني قنية مؤبدة وحياة مخلدة فافعل فلا اعتداد بمماله فناؤه والكبير الهمة على الاطلاق من يتحرى الفضائل لا اللذة ولا الثروة ولا الاستشعار بفخوة واستعلاء على البرية بل يتحرى مصالح العباد شاكرا بذلك نعمة الله وطالبا به مرضاته غير مكترث بقلة مصاحبيه فانه * اذا عظم المطلوب قل المساعد * وطرق العلاء قليلة الايناس

(الباب الثالث الوفاء والغدر)

الوفاء أخو الصدق والعدل والغدر أخو الكذب والجور وذلك ان الوفاء صدق باللسان والفعل معا والغدر كذب بهما وفيه مع الكذب نقض العهد والوفاء يختص بالانسان فمن فقده فقد انسلخ من الانسانية كالصدق وجعل الله سبحانه العهد من الايمان وصيره قواما للامور الناس فالناس مضطرون الى التعاون ولا يتم تعاونهم الا بمراعات العهد والوفاء ولولا ذلك لتنافرت القلوب وارتفعت المعايش ولذلك عظم الله تعالى أمره فقال تعالى وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وايای فارهبون وقال تعالى وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم وقال تعالى وثيابك فطهر أي نزه نفسك عن الغدر وقال عز وجل والموفون بعهدهم اذا عاهدوا وقال عز وجل والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون وعظم حال السموءل فيما التزم به من الوفاء بدروع امرئ القيس ولقلة وجود ذلك في الناس قال تعالى وما وجدنا لاكثرهم من عهد وضرب المثل به في المعزة فقيل هو اعز من الوفاء قال الشاعر

أبى الناس الا ذميم الفعال * اذا جربوا وقبيح الكذب

(الباب الرابع المشاورة)

اشتقاقها من شرت الدابة اذا استخرجت جريها وهي استنباط المرء رأي غيره فيما يعرض له من الامور المشكلة ويكون ذلك في الجهة التي يتردد المرء فيها

بين فعلها ونعمت العدة هي قال أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه المشاورة حصن من الندامة وأمن السلامة وقيل الاحمق من قطعه العجب عن الاستشارة والاستبداد عن الاستخارة فالرأي الواحد كالسجيل والرأيان كالخيطين والثلاثة أصرار لا ينقض وكفاك بمدحه قول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وشاورهم في الامر وقد استحسن الحكماء قول بشار

اذا بلغ الرأي المشورة فاستعن * برأي لبيب أو فصاحة حازم
ولا تحسب الشورى عليك غضاضة * فريش الخوافي تابع للقوادم

لكن اعتبار من تجوز مشورته صعب جدا فانه يحتاج أن يكون صديقا مجربا حازما ناصحا رابط الجاش غير معجب بنفسه ولا متلون في رأيه ولا كاذب في مقاله فمن كذب لسانه كذب رأيه ويجب أن يكون فارغ البال في وقت ما يستشار فقد أحسن بشار في قوله

وما كل ذي لب بمؤتيك نصحه * وما كل مؤت نصحه بلبيب
ولكن اذا ما استجمعا عند واحد * فحق له من طاعة بنصيب

(الباب الخامس النصح)

النصح أصله من نصحت الثوب اذا خططته وهو اخلاص المحبة لغيره في اظهار ما فيه صلاحه وهو ذوب المحبة المختصة بالفضيلة دون محبة النفع واللذة وقد عظم النبي صلى الله عليه وسلم أمرها فقال الدين النصيحة فقيل لمن يا رسول الله فقال لله ولرسوله ولائمة المسلمين ولعامتهم فبين صلى الله عليه وسلم ان النصح واجب لكافة الناس وذلك بان تحري مصلحتهم في جميع أمورهم بقدر وسعك وأول النصح بأن ينصح الانسان نفسه فمن غشها فقل ما ينصح غيره وحق من استنصح أن يبذل غاية النصح وان كان ذلك في شئ يضره ويتحرى فيه قول الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم وقال تعالى واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنه لا يزال الرجل يزداد في صحة رأيه ما نصح لمشيره فاذا غشه سلبه الله تعالى صحته ولا يلتفت الى ما قيل اذا نصحت صاحبك فلم يقبل منك فتقرب الى الله بغشه فذلك قول ألقاه الشيطان على لسانه اللهم الا ان يريد بغشه السكوت فقد قيل كثرة النصيحة

تورث الظنة ومعرفة الناصح من الغاش المستنصح صعبة جدا فالانسان يمكنه يعسر الاطلاع على سره اذ هو يبدي خلاف ما يخفي وليس كالحيوان الذي يمكن الاطلاع على طبيعته

(الباب السادس كتمان السر)

السر ضربان أحدهما ما يلقى الى الانسان من حديث يستكتم وذلك أما الفظا كقولك لغيرك اكتم ما أقول لك وأما حالا وهو ان يتحرى القائل حال انفراده فيما يورده أو يخفض صوته أو يخفيه عن مجالسه ولهذا قيل اذا حدثك انسان بحديث فالتفت فهو امانة والثاني أن يكون حديثا في نفسك ما تستقبح اشاعته أو شيأ تريد فعله والى الاول من ذلك اشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله من أتى منكم من هذه القاذورات شيأ فليستتر بستر الله والى الثاني أشار من قال من وهى الامراء لانه قبل احكامه وكتمان النوع النوع الاول من الوفاء وهو أخص بعامة الناس والثاني من الحزم والاحتياط وهو أخص بالملوك وأصحاب السياسات واذاعة السر من قلة الصبر وضيق الصدر وتوصف به ضعفة الرجال والنساء والصبيان والسبب في أنه يصعب كتمان السر هو ان للانسان قوتين آخذة ومعطية وكلتاهما مما تتشوف الى الفعل المختص بها ولولا ان الله تعالى وكل المعطية باظهار ما عندها لما أتاك بالاخبار من لم تزود فصارت هذه القوة تتشوف الى فعلها الخاص تحت اطلاقها ولا يخدعنك عن سرك قول من قال شعرا

ويكاتم الاسرار حتى أنه * ليصونها عن أن تمر ببالله

فذلك قول من يستنزلك عما في قلبك فاذا استفرغ ما عندك لم يرع فيه حقك فقد قيل الصبر على القبض على الجمر أيسر من الصبر على كتمان السر وما أصدق من أنبأ عن حقيقة حاله حيث قال له صديقه أريد أن أفشي اليك سرا تحفظه علي فقال لا أريد أن أرى قلبي بجوارك وأجعل صدري خزانة شكوك فيقلقني ما أقلقك ويؤرقني ما أرقك فتبيت بافشائه مستريحا وبيت قلبي يحوبه جريحا وقيل أكثر ما يستنزل الانسان عن سره في ثلاثة مواضع عند الاضطجاع

الاضطجاع على فراشه وعند خلوته بعرسه وفي حال سكره ومن حق من يسار غيره ان يجتنب المحافل لأمرين أحدهما حذرا من ان يسلط به الظن فهذا يقول قد خبأ شيأ وهذا يستريب وذا يتهم والثاني ربما يتبع بالفحص فيطلع على مراده ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث

(الباب السابع التواضع والكبر)

التواضع مشتق من الضعة وهو رضى الانسان بمنزلة دون ما يستحقه فضله ومنزلته وفضيلة لا تكاد تظهر في افناء الناس لانحطاط درجتهم وانما ذلك يتبين في الملوك واجلاء الناس وعلمائهم وهو من باب التفضل لانه يترك بعض حقه وهو بين الكبر والضعة فالضعة وضع الانسان نفسه منزلة تزري به ليضع حقه والكبر وضع نفسه فوق قدره والفرق بين التواضع والخشوع ان التواضع يقال فيما بين رفيع ووضيع وأيضا فالتواضع يعتبر بالاخلاق والافعال الظاهرة والباطنة والخشوع يقال باعتبار أفعال الجوارح ولذلك يقال تواضع القلب وخشعت الجوارح وقال عز وجل خاشعة أبصارهم وخشعت الاصوات للرحمن وقد عظم النبي صلى الله عليه وسلم التواضع فقال طوبى لمن تواضع في غير منقصة وذل في نفسه من غير مسكنة وقيل لبذرجمهر هل تعرف نعمة لا يحسد عليها وبلاء لا يرحم صاحبه عليه قال نعم أما النعمة فالتواضع وأما البلاء فالكبر وقال بعض الحكماء وجدنا التواضع مع الجهل والبخل أحمد عند الحكماء من الكبر مع الادب والسخاء فأحسن بحسنة غطت على سيئتين وأقبح بسيئة غطت على حسنتين فالكبر ظن الانسان أنه أكبر من غيره فالتكبر اظهار ذلك وهذه صفة لا يستحقها الا الله عز وجل ومن ادعاها من المخلوقين فهو فيها كاذب ولذلك صار ممقوتا في الباري تعالى وذما في البشر وانما شرف المخلوق في اظهار العبودية كما قال تعالى لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون تنبيها على ان ذلك لهم رفعة لا ضعة والمتكبر والضرع كلاهما جاهل لكن الضرع غبي والمتكبر غير أحمق وشتان ما بينهما والغبي قد يتأدب والاحمق لا سبيل الى تأديبه ولان الضرع قد ترك ماله والاحمق قد ادعى ما ليس له وشتان بين المنزلتين ولان التكبر يتولد

من الاعجاب والاعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن والجهل رأس الانسلاخ من الانسانية ومن الكبر الامتناع من قبول الحق ولذلك عظم الله تعالى أمره فقال انه لا يحب المتكبرين وقال تعالى فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون وقال تعالى كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار وقال صلى الله عليه وسلم عن الله العظمة ازاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحدة منهما قذفته في نار جهنم ونبه تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم فقال ولا تمش في الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا وأقبح كبر بين الناس ما كان معه بخل ولذلك قال عليه الصلاة والسلام خصلتان لا يجتمعان في مؤمن الكبر والبخل واستحسن قول الشاعر

جمعت أمرين ضاع الحزم بينهما * نفس الملوك وأخلاق المماليك

ومن تكبر ياسة نا الهادل على دناءة عنصره ومن تفكر في ذاته فعرف مبدأه ومنتهاه وأواسطه عرف بعضه وروض كبره وقد نبه الله على ذلك بقوله فلينظر الانسان مم خلق الآية وقال تعالى قتل الانسان ما أكفره من أي شئ خلقه من نطفة خلقه قال تعالى انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج والى هذا المعنى نظر مطرف بن عبد الله الشخير لما قال ليزيد بن المهلب

كيف يزهى من فجيعه * أبد الدهر ربيبه

وقال

يا قريب العهد بالمخـ ـرج لم تتواضع

فمن كان تكبره لقنيته فليعلم ان ذلك ظل زائل وعارية مستردة والاستطالة اظهار الطول فمن أظهر ذلك من غير طول فمنسلخ من الانسانية ومن أظهره مع طوله فقد ضيع الطول والصلف يقال اعتبار الميل في عنقه والصعر الميل في خده ولذلك استعمل فيه لي الرأس نحو قوله تعالى لووا رؤوسهم والباء استقصاء النفس بالترفع عن الانقياد للواجب والخيلاء ان يظن في نفسه ما ليس فيها من قولهم خلت ولتصور هذا المعنى قال حكيم اعجاب المرء بنفسه أن يظن بها ما ليس فيها مع ضعف قوة فيظهر فرحه وزهوه والاستخفاف من الفرح بنفسه وأما العزة فالترفع بالنفس عما يلحقه غضاضة وأصلها من العزاز وهو الارض الصلبة فالمتعزز

قوله والباء الخ في القاموس باى نفسه رفعها وفخر بها اه

فالمتعزز من حصوله فى عزاز لا يلحقه فيه غضاضة كالمتظلف فى كونه فى ظلف من الارض لا يلحقه مذلة والعزة منزلة شريفة وهى نتيجة معرفة الانسان بقدر نفسه واكرامها عن الضراعة للاعراض الدنيوية كما ان الكبر نتيجة جهل الانسان بقدر نفسه وانزالها فوق منزلتها وكثيرا ما يتصور أحدهما بصورة الآخر كتصور التواضع والتضرع والتذلل بصورة واحدة وتصور الاسراف بصورة الجود والبخل بصورة الحزم ولهذا قال الحسن رضى الله تعالى عنه لمن قال له ما اعظمك من نفسك فقال لست بعظيم ولكنى عزيز قال الله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين وقال النبى صلى الله عليه وسلم لا ينبغى للمؤمن أن يذل نفسه ولما قلنا قالوا التكبر على الاغنياء تواضع تنبيها على ان هذا التكبر عزة نفس ومن أجل ان هذا التكبر غير مذموم قال عز وجل ويتكبرون فى الارض بغير الحق وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه من خضع لغنى فوضع نفسه عند طمعا فيه ذهب ثلثا دينه وشطر مروءته

(الباب الثامن الفخر)

الفخر هو المباهاة بالاشياء الخارجة عن الانسان وذلك نهاية الجهل لمن نظر بعين عقله وانحسر عنه قناع جهله فأعراض الدنيا عارية مستردة لا يؤمن كل ساعة ان ترتجع فالمباهى بها مباه بغير ثراه ومبجح بما فى نظر سواه كالفاجرة تتبجح بزيها بل هو دون من ذلك فقد قال بعض الحكماء لم يفتخر بثرائه ان افتخرت بفرسك فالحسن والفراهة له دونك وان افتخرت بآبائك فالفضل فيهم لا فيك ولو تكلمت هذه الاشياء لقالت هذه محاسننا فما لك من الحسن وأيضا فالاعراض الدنيوية سحابة صيف عن قليل تقشع وظل زائل عن قليل يضمحل كما قال الشاعر

انما الدنيا كرى وافترت * من رآها ساعة ثم انتفت

بل كما قال الله عز وجل انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فان افتخرت فافتخر بمعرفة غير خارجة عنك واذا أعجبك من الدنيا شئ فاذكر فناءك وبقاءه أو بقاءك وزواله أو فناءكما جميعا فاذا رابك ما هو لك فانظر الى قرب خروجه من يدك وبعد رجوعه اليك وطول حسابك

قوله الفراهة فى الصحاح الفاره من الناس المليح الحسن ومن الدواب الجيد السير اه وفيه المعنى المقصود اه

عليه ان كنت تؤمن بالله واليوم الآخر وقد ذم الله تعالى الفخور بقوله والله لا يحب كل مختال فخور

(الباب التاسع العجب)

العجب ظن الانسان بنفسه استحقاق منزلة هو غير مستحق لها ولهذا قال اعرابي لرجل معجب بنفسه يسرني ان أكون عند الناس مثلك عند نفسك وأكون في نفسي مثلك عند الناس فمتى حقيقة ما يقدره المخاطب ورأى ذلك انما يتم حسنه متى هو عرف عيوب نفسه وقد قيل للحسن من شر الناس فقال من يرى أنه أفضلهم فقال بعضهم الكاذب أبعد الناس من الفضل والمرائي أسوأ حالا من الكاذب لانه يكذب بقوله وفعله والمعجب أسوأ حالا منهما فانهما يريان نقص أنفسهما ويريدان اخفاءه والمعجب أعمى عن مساوئ نفسه فيراها محاسن ويبديها قالوا والمرائي والكاذب قد ينتفع بهما كملاح خاف ركابه الغرق من مكان في البحر فيؤديهم ذلك الى العطب وقد يحمد رأي الرئيس اذا قصد ان يقتدي به في فعل الخير والمعجب لا حظ له في ذلك بوجه لانك اذا وعظت المرائي والكاذب فنفسهما تصدقك وتبكتهما المعرفة بنقصهما والمعجب لجهله بنفسه يظنك في وعظه ملغيا فلا ينتفع بمقالك واياه قصد تعالى بقوله أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ثم قال تعالى فلا تذهب نفسك عليهم حسرات تنبيها على انهم لا يعقلون لاعجابهم وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه يقول ابليس اذا ظفرت من ابن آدم بثلاث لا أطالبه بغيرها اذا أعجب بنفسه واستكثر عمله ونسي ذنوبه وكما أن المعجب بفرسه وان كان رديئا لا يروم ان يستبدل به غيره كذلك المعجب بنفسه لا يريد بحاله وان كانت رديئة بدلا وأصل الاعجاب من حب الانسان نفسه وقد قال صلى الله عليه وسلم حبك الشيء يعمي ويصم ومن عمي وصم تعذرت عليه معرفة عيوبه فيجب علينا أن نجعل على أنفسنا عيونا تعرفنا عيوبنا حق قال عمر رضي الله تعالى عنه رحم الله امرأ أهدى الي عيوبي ويجب على الانسان اذا رأى من غيره سيئة أن يرجع على نفسه فان رأى منها ذلك نزعها ولم يغفل عنها قال الشاعر

من جهلت نفسه قدره * رأى غيره منه ما لا يرى

والتيه قريب من العجب لكن المعجب يصدق نفسه فيما يظن بها وهما والتياه يصدقها قطعا كأنه متحيرفي تيه

(الباب العاشر أنواع اللذات وتفصيلها)

اللذة ادراك المشتهى والشهوة انبعاث النفس لنيل ما تتشوفه وهي ثلاث بحسب القوى الثلاث فبحسب المعنيات الثلاث لذة عقلية وهي التي يختص الانسان بها كلذة العلم والحكمة ولذة بدنية يشارك فيها جميع الحيوانات الانسان كلذة المأكل والمشرب والمنكح ولذة يشارك فيها بعض الحيوان الانسان كلذة الرياسة والغلبة وأشرفها وأقلها وجودا اللذة العقلية فشرفها انها لا تمل وتبذل بها لكن لا يعرفها الا من تخصص بها فالحكمة لا يعرفها الا الحكيم وأدنى اللذات منزلة وأكثرها وجودا اللذة البدنية فكل انسان يتشوفها وكل حيوان لكنها تمل تارة وترادتارة وهي من وجوه مداواة من آلام ومن وجوه هي آلام وعلى هذا قال الحسن في وصف الانسان ضربع جوع وقتيل شبع وجميع اللذات تنقسم عشرة أقسام مأكل ومشرب ومنكح وملبس ومشم ومسمع ومبصر ومركب وخادم ومرفق من الآلات وما أشبهها وقد جعل ذلك سبعة وأدخل المركب والمرفق والخادم من جملة المبصرات وعلى ذلك ماروى ان أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه قال لعمار بن ياسر رضى الله تعالى عنه وقد رآه يتنفس علام تنفسك يا عمار ان كان على الآخرة فقد ربحت تجارتك وان كان على الدنيا فقد خسرت صفقتك فاني وجدت لذاتها سبعا المأكولات والمشروبات والمنكوحات والملبوسات والمشمومات والمسموعات والمبصرات فأما المأكولات فأفضلها العسل وهو من ذباب وأما المشروبات فافضلها الماء وهو مباح أهون موجود وأعز مفقود وأما المنكوحات فبال في مبال وحسبك ان المرأة تزين بأخس شئ وترادبا قبح شئ منها وأما الملبوسات فأفضلها الديباج وهو نسج دود وأما المشمومات فأفضلها المسك وهو دم فأرة وأما المسموعات فريح هابة في الهواء وأما المبصرات فخيالات صائرة الى الفناء وقد ذكر الله عز وجل أصل ذلك في

قوله زين للناس حب الشهوات والمشار اليه بحرث الدنيا هذه الاشياء المسومة على ماذكر أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه والعشرة على ماذكر غيره وكلا القولين في التحصيل واحد والمراد بالنساء اقتناهن والاستكثار منهن والبنين الذكر من الاولاد والحفد والخدم وبالانعام الازواج الثمانية وبالخيل المسومة السائمة منها والمستعدة واعلم ان التي هي ضرورية للانسان من هذه اللذات ولا قوام له الا بها ما هو مشترك بينه وبين جنسه من الحيوان المأكل والمشرب يجمعهما اسم الغذاء والمنكح فبالغذاء بقاء الاشباح وبالنكاح بقاء الانواع ولذلك صارت الحاجة اليهما ضرورية وصارتناولهما لابد للناس منه وسائر اللذات مخصوص بها الانسان وليس بضروري له ويتناوله بفكره وتأنف الملوك من هذه الملاذ الا اثنتين السماع لكونه لذة روحانية والثناء لكونه دالا على الهمة الرفيعة ومتى كانت الشهوة متناهية عقلية كانت أم بدنية قيل لها الحرص والحريص قد يكون محمودا ولذلك قال تعالى حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم ومتى كانت الشهوة للفنيات قيل لها الشره سواء كان مالا أو نكاحا فمتى كانت للطعام قيل لها النهم ومتى كانت للنكاح قيل لها الشبق وثلاثتها أعني الشره والنهم والشبق مذمومة وما روي من قوله منهومان لا يشبعان منهوم بالمال ومنهوم بالعلم فالنهم بالعلم استعارة وهو أن يحمل على نفسه ما تقصر قواه عنه فينبت وقد قال صلى الله عليه وسلم ان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى

(الباب الحادي عشر فيما يحسن تناوله من المطعم وفيما يقبح منه)

الغذاء ضربان أحدهما ما لا يستغني عنه في قوام البدن كالطعام الذي به يتغذى والماء الذي به يروى والانسان اذا تناول من ذلك مقدارا ما يمكن التبلغ بأقل منه على ما يجب وكما يجب معذور بل مشكور ومأجور وعلى هذا ما روي عند أكل الصالحين تنزل الرحمة وحقه ان يتناوله متناول مضطر عالم بقذارته ويرى ان ادخاله نفسه كدخول المستراح ويتحقق ان نسبة الانسان الى الفواكه والثمار نسبة الجعل الى الروث فلو نطق الشجر لقال لك أنت تأكل فضلاتي كما يأكل الجعل فضلاتك والخنزير اذا استطاب لفاظة الانسان فما هو الا

كاستطابتنا

كاستطابتنا لفاظة الشجر وبهذا يسلم ان شرف المطعم والمشرب بالاضافة لا بالاطلاق فألق أيها الانسان عن منا كبك الدثار وحل البصيرة واستعمل الاعتبار تجد صدق ماقلت ومن تناول من الطعام أكثر من ذلك كره له طبا وشرعا اما طبا

فان الداء أكثر ماتراه * يكون من الطعام أو الشراب

وقد قال صلى الله عليه وسلم البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وتعود كل بدن ما اعتاد وقال ابن زكريا المتطبب ماترك النبي صلى الله عليه وسلم من الطب شيأ الا وأتى به فى هذه الكلمات الثلاث وأما شرعا فقد قال صلى الله عليه وسلم ما ملأ وعاء أبغض الى الله من بطن ملئ من حلال وذلك ان امتلاء البطن مقوم للشهوة وتقومة الشهوة داعية للهوى والهوى أعظم جند للشيطان ومن آثر هواه انتشر فى بدنه وحل فى كل عضو منه خرق بقدر وسعه له فكثر جنود الشيطان والشيطان اذا تسلط على الانسان سباه من ربه وصرفه عن بابه وقيل لحكيم ما بالك مع كبرك لاتتفقد بدنك وقد انهدّ فقال لانه سريع المرح فاحش الأثر فأخاف ان يحمل بى فيورطنى ولئن أحمله على الشدائد أحب الىّ من ان يحملنى على الفواحش والضرب الثانى من المطعم ما يستغنى عنه ولو توهمناه مفقودا لم يختل بافتقاده البدن وأعظمها ضررا المسكر فنفعه ليس بضرورى انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر وقيل حيث الشراب والله لا تسكن الحكمة والعفة فان قيل فقد قال الله تعالى قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق فلم يخص من الحلال قدرا دون قدر وجنسا دون جنس قيل الطبيب التام هو الذى جمع بين اللذة والنفع والفضيلة وذلك هو القدر المتبلغ به على ما يجب وكما يجب ألا ترى كيف ذم من لم يكن ذلك قصده فقال تعالى ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل وقال تعالى الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام ومن الدلالة على خسة كثرة الاكل ادعاء العامة الاستغناء بالقليل وقلة وجود المفتخر بكثرة الأكل وقيل من همته ما يدخل بطنه فقيمته ما يخرج منها وقد استحسن قول الشاعر

فانك مهما تعط بطنك سؤله * وفرجك نالا غاية الذم اجمعا

وقال صلى الله عليه وسلم حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فان أبيت فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس وقال عليه الصلاة والسلام المؤمن يأكل في معاء واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء فنبه من الخبرين انه لا يستحب للإنسان الا الاكل في ثلث بطنه وهو ما ذكره من اللقيمات وذلك دون عشر لقيمات لان الجمع بالالف والتاء فيما دون العشر ثم رخص ان يغلب عليه النهم ان يبلغ الى ثلث بطنه فحصل من ذلك ان يكون أكل المؤمن في اليوم بحسب شبع بطنه ثلثه

(الباب الثاني عشر فيما يحسن من المنكح وما يقبح منه)

قد تقدم ان النكاح ضروري في حفظ النسل وبقاء النوع كما ان الغذاء ضروري في حفظ الشخص ولذلك قال صلى الله عليه وسلم تناكحوا تناسلوا تكثروا فاني مكاثر بكم الامم يوم القيامة وقال خير النساء الودود الولود وقال سوداء ولود خير من حسناء عقيم والقصد النسل حظر اتيان النساء في محاشهن وعلى هذا نبه قوله عز وجل نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم فنبه على انه لا يجوز اتيانها الا في المحرث وكره العزل توكيدا للمقصود من الجماع وعلى ذلك دل قوله عز وجل وابتغوا ما كتب الله لكم وشهوة النكاح على ضربين أحدهما على الوجه الذي سنه الشرع وذلك ما محمود وهو ان يتعاطاه قاصدا به النسل أو مزيلا على ما يجب لوجهه أو مسكنا لنفسه فالماء اذا اجتمع في مقره يدعو صاحبه الى ما هو في الشرع محرم أو مكروه طبا ان لم يكن قد كره شرعا وذلك ان يتعاطاه المرء فضلا عما تقدم ذكره فانه ينفذ العمر ويستنفد القوى ويوسع أوعية المني ويجلب البها دما كثيرا ويزيده شهوة وأعظم فائدة فيه ان يلحق صاحبه بافق البهائم من الجاموس والثيران ونحوها مما يوصف بالشبق والضرب الثاني هو ان يكون على غير الوجه المشروع وذلك ضربان أحدهما تعاطيه في المحرث ولكن لا على الوجه الذي يجب وكما يجب كالزنا وقد عظم الله عز وجل أمره فقال الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك ومرة قرنه بالشرك وقتل النفس المحرمة فقال عز وجل والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس

التي

التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما وسمى ذلك سفاحا من حيث ان المجتمعين عليه لاغرض لهما سوى سفح الماء للشهوة كمن ضيع ماله في غير حرثه والثاني تعاطيه في غير المحرث كاللواطة وهي أعظم من الزنا لان الزنا وضع البذر في المحرث على غير الوجه المأمور به فهو كمن يزرع في أرض غيره أو على غير الوجه الذي يجوز ان يزرع فيها وفي اللواطة مع ذلك تضييع البذر فتعاطيها من قال عز وجل فيه ويهلك الحرث والنسل ولهذا وصف الله تعالى قوم لوط بالاسراف فقال أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون وأما العشق الشهوي ففيه وجهل بما وضع لاجله الجماع وتجاوز لحدا البهائم في عدم ملكه النفس وذم الهوى لان المتعشق لم يرض بارادة لذة الباه التي هي من أسمج الشهوات حتى أرادها من موضع واحد فازداد بذلك عبودية وذلة على ذلة والبهيمة احسن حالا منه لانها اذا أسقطت الأذى عن نفسها بالسفاد سكنت فصارت الى الراحة وهو لم يرض بذلك حتى استعان بالعقل في خدمة الشهوة واستخلائها وانما اعطاه العقل ليقمع به الشهوة القبيحة لا ليجعله خادما لها وساعيا في حقها وتعاطي العشق حال كل جاهل فارغ سيما اذا نظر في احوال العشاق وجالسهم وربما يؤدي الحال العشاق الى الرق والذبول بل الى الموت قال

لو فكر العاشق في منتهى * معشوقه قصر عن عشقه

ومن اراد شقوته فهو كمن يثير بها ثم عارية وسباعا ضارية ثم يلتمس دفاعها والخلاص منها وكفى بما يهيج من باعث الطبيعة من اثارتك بالفكرة والروية فمن أعان الطبيعة على ذلك كان كما قيل

كلما ركب الزمان قناة * ركب المرء في القناة سنانا

وقال حكيم لتلميذ له هوى جارية هل تشك في انك تفارقها يوما ما قال نعم قال فاجعل ذلك المرارة المخترعة في ذلك اليوم في يومك هذا وارتج ما بينهما من هول اليوم المنتظر وصعوبة ذلك بعد الاستحكام وانضمام الالفة اليه وقال بعض الحكماء ما العشق فقال جنون لا يؤجر صاحبه عليه وسئل آخر عنه فقال مرض نفس فارغة لا همة لها وقال آخر هو اختيار صادف نفسا فارغة فاشاروا كلهم الى معنى واحد

(الباب الثالث عشر العفة)

العفة لا تتعلق الا بالقوة الشهوية لا بالملاذ الحيوانية وهي المتعلقة بالغارين البطن والفرج دون الالوان الحسنة والالحان الطيبة والاشكال المنتظمة فان قيل فاستطابة الرائحة قد تكون للبهائم ألا ترى ان الذئب يستطيب ريح الغنم والكلب يستطيب ريح الارنب قيل استطابتها لذلك استطابة للاكل والذي قلناه من الرائحة هو ما يستطاب لذاته لا لأجل غيره وما هو لاجل أحد الغارين فحكمه حكمهما كاستطابة الانسان ريح السكباج فثبت ان العفة هي ضبط النفس عن الملاذ الحيوانية وهي الحالة المتوسطة بين افراط هو الشره وبين تفريط هو جمود الشهوة وهي أس الفضائل من القناعة والعفة والزهد وغنى النفس والسخاء وعدمها يغطي على جميع المحاسن ويعري من لبوس المحامد ومن اتسم بسمة العفة قامت العفة له بحجة ما سواها من الفضائل وسهلت له سبيل الوصول الى المحاسن وأسها يتعلق بضبط القلب عن الشهوات البدنية وعن اعتقاد ما يكون جالبا للبغي والعدوان وقسامها يتعلق بحفظ الجوارح فمن عدم عفة القلب والعقل يكون منه التمني وسوء الظن اللذان هما أس كل رذيلة لان من تمنى ما في يد غيره حسده فاذا حسده عاداه واذا عاداه نازعه ومن نازعه ربما قتله ومن أساء الظن عادى وبغى وتعدى ولذلك نهى الله سبحانه وتعالى عنهما جميعا فقال ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض وقال يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم فأمر فيهما بقلع أصل شجرتين يتفرع عنهما جل الرذائل ولا يكون الانسان تام العفة حتى يكون عفيف اليد واللسان والسمع والبصر فمن عدمها في اللسان السخرية والتحمر والغيبة والهمز واللمز والنميمة والتنابز بالالقاب ومن عدمها في البصر مده العين الى المحارم وزينة الحياة الدنيا المولدة للشهوات الرديئة ومن عدمها في السمع الاصغاء الى المسموعات القبيحة وعماد عفة الجوارح كلها ان لا يطلقها صاحبها في شئ مما يخص كل واحد منهما الا فيما يسوغ فيه العقل والشرع دون الشهوة والهوى واعلم أنه لا يكون المتعفف عفيفا الا بشرائط وهي ان لا يكون تعففه عن الشئ انتظارا لاكثر منه أو لانه لا يوافقه أو لجمود شهوته أو لاستشعار خوف من

عاقبته

عاقبته أولانه ممنوع من تناوله أولانه غير عارف لقصوره فان ذلك كله غير عفة بل هو اصطياد أو تطبب أو مرض أو حزم أو عجز أو جهل وترك ضبط النفس عن الشهوة أذم من تركها عن الغضب والشهوة مغتالة مخادعة والغضب مغالب والمحسر عن قتال المخادع أدرأ حالا من المحسر عن المغالب ولهذا قيل عبد الشهوة أذل من عبد الرق وأيضا فالشره قد يجهل عيبه فهو شبيه بمدينة لها ستة أبواب رديئة يتعاطونها وهم يعرفون قبحها وليس من تعاطى قبيحا يعرفه كمن تعاطاه وهو يظنه حسنا

(الباب الرابع عشر القناعة والزهد)

القناعة الرضى بما دون الكفاية والزهد الاقتصار على الزهيد أى القليل وهما يتقاربان لكن القناعة تقال اعتبارا برضى النفس والزهد يقال اعتبارا بالتناول لحظ النفس وكل زهد حصل لا عن قناعة فهو تزهد لا زهد ولذلك قال بعض الصوفية القناعة أول الزهد تنبيها على ان الانسان يحتاج أولا الى قمع نفسه والتخصص بالقناعة ليسهل تعاطى الزهد والقناعة هى الغنى فى الحقيقة والناس كلهم فقراء من وجهين أحدهما الافتقار هم الى الله عز وجل كما قال تعالى يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد والثانى لكثرة حاجاتهم فأغناهم أقلهم حاجة فمن سد مفاقره بالمقتنيات فما فى انسدادها طمع فهو كمن يرقع الخرق بالخرق ويسد الفقر بالفقر ومن سدها بالاستغناء عنها بقدر وسعه والاقتصار على ضروراته فهو الغنى والمقرب الى الله تعالى كما أشار تعالى اليه فيما حكى عن طالوت ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى الا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه الا قليلا منهم ولأن الغنى هو عدم الحاجة فاغناهم أقلهم حاجة ولذلك كان الله سبحانه أغنى الاغنياء لانه لا حاجة به الى شئ وعلى هذا نبه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله ليس الغنى من كثرة العرض وانما الغنى غنى النفس ومن أبيات الحكمة

غنى النفس ما يكفيك من سد حاجة * فان زاد شيأ عاد ذلك الغنى فقرا

والمخير بين ان يستغنى عن الدنيا وبين ان يستغنى بها كالمخير بين ان يكون

مالكا أو مملوكا وقويا أو ضعيفا ومعافى أو مبتلى وميتا أو حيا ففى اختيار الاستمتاع بها فقد اختار ان يكون مملوكا وضعيفا وميتا ومبتلى ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش وقيل لحكيم لم لا تنتعل فقال لانى لم أجد ما يغمنى واعلم ان الزهد ليس من ترك المكاسب فى شئ كما توهمه قوم أفرطوا حتى قربوا من مذهب المانوية والبراهمة والرهابنة فان ذلك يؤدى الى خراب العالم ومضادة الله عز وجل فيما قدر ودبر وقد تقدم والزهد من وجه صبر ومن وجه جود والجود ضربان جود بما فى يدك متبرعا وجود عما فى يد غيرك متورعا وذلك أشرفهما ولا يحصل الزهد فى الحقيقة الا لمن يعرف الدنيا ماهى ويعرف عيوبها وآفاتها ويتحقق ما يستغنى عنها ويعرف الآخرة وافتقاره اليها ولاجل انه لا يد فى ذلك من العلم قال تعالى قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون ولان الزاهد فى الدنيا راغب فى الآخرة فهو يبيعها بها ثم قال تعالى ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة ومحال ان يبيع كيس عينا بأثر الا اذا عرفها وعرف فضل المتاع على المبيع وقيل لبعض الزهاد ما أزهدك وأصبرك فقال أما زهدى فرغبة فيما هو أعظم مما أنا فيه وأما صبرى فلجزعى من النار

(الباب الخامس عشر الورع)

الورع أصله جبن وضعف وقد يستعمل فى كل واحد منهما لكن جعل فى عرف الشرع لترك التسرع الى تناول اعراض الدنيا وذلك على ثلاثة أضرب واجب وهو الاحجام عن المحارم وذلك للناس كافة ومندب وهو الوقوف عن الشبهات وذلك للاوساط وفضيلة وهو الكف عن كثير من المباحات والاقتصار على أقل الضرورات وذلك للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد قال صلى الله عليه وسلم لا يكون العبد من الصالحين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس وقال باعتبار المنزل الثانى لما قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم ما أيسر الورع اذا شككت فى شئ فدعه

*(الفصل